مُناقشات

حول قصة « وحول »

كتب الاستاذ يوسف الشاروني ينتقد قصتي « وحول » (*) ، فأخذ عليها انني اعطيت القراء صورة عن بطلها العامل لم ابرز وجودها الفني ، وأوضح ذلك بان انصراف هذا العامل عن كسب حصل عليه بغير تمهيد «أمر غير حقيقي » ، ثم ختم نقده بقوله « ان المؤلف قد أفحم إفحاماً على العامل هذا اللون من التفكير الاجتماعي ، مما يهبط بالمستوى الفني للقصة » .

وأحسب ان في هذا الكلام ذاته، على غموضه ، رداً على انتقاد الاستاذ الشاروني . فهو يذكر ان العامل كان يفكر تفكيراً اجتماعياً . وإن كان يعتبر هذا التفكير إفحاماً من المؤلف . واني لاتساءل بعجب : كيف لم يجد الناقد في هذا الصراع الطويل الذي عاناه العامل ، وفي هذا التفكير الاجتماعي بالذات ، حين ربح ورقة اليانصيب ، مبرراً لرفضه ذلك الربح ؟

لعله يحسن بي هنا ان استعيد هذا الصراع الذي رسمت خطوطه بدقة وتركيز اعتقد انه لا فجوة فيها . فان بطلنا يظهر في اول القصة ونفسه تنازعه الى شراء ورقة اليانصيب ، ولكنه يتمنى مع ذلك ان ينجو من اغراء هذه الرغبة . وقد نجح صباحاً في الفرار من اصوات اولئك الشياطين وايديهم الممدودة الملوحة . اما في المساء ، فقد طالعه ورفيقه ، حين خرجا من المطبعة ، وجه صبي ذي عينين واهنتين مكسورتين شيعا ن على تقاسيمه سيما الذل والمسكنة ، ومال له بصوت ضعيف « آخر تنصف ورقة يا سيدي ، إن شاءالله تربح».ومع رغبته الاولى في ابتياع مثل هذه الورقة ، فقد ايقن انه إنما اشتراها اشفاقاً على الصبي ، لا طمعاً في الربح .

وقد بدأ الصراع يتجه نحو ذروته حين طلب اليه رفيقه ان يدينه ليرة يشتري بها بعض الجبن لاولاده ، مبرراً هذا الطلب بقوله « ما دام في استطاعتك ان تهدر خمس ليرات تماً لامل في الهواء ... » واذ ذاك بدأ الندم يثقل على ضمير العامل : خمس ليرات كان بأشد الحاجة اليها ، وقد وعد زوجته بان يبتاع بعض الحلوى لولديه . ثم أخذ الضيق بانفاسه حين انبأته زوجته ان ابنه يشكو البرد والسعال ، وبلغ الندم في نفسه حداً حمله على ان يحاول نسيانه . فدعا ابنته اليه وسألها ان تقرأ عليه درس الغد .

في هذا الجو من القلق والتبكيت ربحت ورقته . اما الغشاوة التي رانت على عينيه ، فضل طريق المطبعة ، فبعثها مزيج من الفرح ومن ذلك الندم ولقد دخل الى المقهى ، ليستصفي شعوره ، فلم يبلغ من ذلك شيئاً . وإن إحساسه بمرارة مذاق القهوة ذو دلالة غنية : إن المرارة في فمه ، في نفسه ، في ضميره . ولقد حسب انه سيضع حداً لها اذا هو استسلم للنوم الذي سينسيه ذلك الاحساس . ولكنه افاق في الليل على سعال ابنه ، فرده ذلك الى الواقع ، هذا الواقع الذي لم يكن له بد من مواجهته الآن . إن ولده مريض ، وهو يحتاج الى علاج ، ولكن العلاج لن يجدي اذا هم ظلوا في هذه الغرفة الرطبة . إذن ، فسينتقل بذويه الى بيت دافىء يقتني له بعض الاثاث الجديد : لا بد له إذن من قبول هذا الربح . وإنه الآن في انتظار الصباح ، ليقصد الى مكتب صرف الاوراق الرابحة .

كان ذلك هو قراره الاول . على ان القضية لا تقف هنا . وهو مدعو الى ان يتابع تطورها : إن الاهتمام بالبيت الجديد سيقتضيه ردحاً من الزمن ، وانقطاعاً عن العمل ، اسبوعاً او يزيد . وهنا يستيقظ العامل على وضعه الحقيقي الذي خدرته هذه الورقة الرابحة التي قذفتها اليه ريح الاقدار .

لقد ظل البطل يقلب امره على وجوهه كلها ، ويواجه رفاقه الذين كان يكدح معهم ويأكل رغيفه معهم بعرق جبينه .. إنه الحس الاجتماعي الذي ينعم به كل انسان ، ولا سيما كل من جمعهم البؤس فزودهم بشعور مشترك في الحياة . وليس في نيتي هنا ان استعيد المحاكمات العقلية التي مرت بذهن البطل ، فهي ليست من الفلسفة في شيء ، وانما هي ظلال تنبعث من النفوس الشريفة ، وواضح ان هذا العامل كان ينعم بمثل هذه النفس . ولقد استغرقت هذه المحاكمات والاسئلة ، يطرحها العامل على نفسه ، زهاء نصف صفحة ، وكلها تبرير للموقف الذي سيتخذه : اي لرفض الربح الذي أتاه ، ولم يكن ربحاً حلالاً . وأن يكون الدافع الذي حمل العامل على شراء الورقة هو الفقر ، على فرض ان ذلك صحيح ، فليس في هذا ما يمنع العامل من ان يراجع نفسه ، ويجعله يتخذ موقفاً آخر بعد فترة كافية من التفكير والتقدير .

صحيح إن رفض ربح يأتي الانسان على حين غرة ، هو مبدئياً أمر غير محتمل الوقوع دائماً . ولكنه يظل ابداً مرتبطاً بالملابسات والقرائن والمبررات. وجدير بهذه ، حين تتوفر ، ان تحقق هذا الرفض . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى تأتي « الرؤية » القصصية للكاتب ، وفهمه لمعنى الواقعية . فانا لا افهم الواقعية على انها تسجيل آلي خام للاحداث ، وانما افهمها على انها « تجاوز » و « نزوع » ، ابتداء من الواقع ، لا تقيد به واقتصار عليه . وإلا افرغنا الادب خاصة ، والفن عامة، من اي محتوى، ونزعنا منه كل رسالة . فواضح من تفكير العامل الذي يرفض فكرة القدر انه يؤمن بان الانسان هو الذي يصنع قدره ومصيره ، ولا بد له ، لكي يثبت عملياً هذا المفهوم ، من ان يقوم « بعمل » حاسم ، قد تكون فيه صدمة ، ولكن هذه هي طبيعة كل عمل ثائر .

اما اعتقاد الاستاذ الشاروني بأني اوحمت على هذا العامل هذا اللون من التفكير الاجتماعي فلا ادري كيف ارد عليه . كل ما استطيع ان اقوله في هذا الصدد انني عشت سنوات طويلة ، بحكم عملي الصحفي والادبي ، بين عدد من عمال المطابع ، واتيح لي ان اصادق بعضهم وانافشهم واستكشف نفسياتهم ؛ واستطيع ان أؤكد للاستاذ الشاروني ان كثيرين منهم يتمتعون بمثل هذا الوعي الذي يتمتع به بطل القصة ، وان لديهم تفكيراً اجتماعياً صافياً وامكانيات غنية .

بقي انتقادان ، اولهما تعليق الاستاذ الشاروني على قولي عن البطل : « أليس مما يخجله ان المال ليس ماله ، بل مال كثيرين من الاشقياء الذين تخنقهم اوضاع حياتهم » فقد قال تعاقباً على ذلك : « وهكذا اعطانا المؤلف كل المبررات لنتيجة تحقق عكسها » ... وانا لا أفهم هذه العبارة ، او لعل الناقد فهم عبارتي فهماً معكوساً او مغلوطاً ، فواضح ان هذه الفكرة تبرر تماماً ان يرفض العامل هذا المال الذي ليس هو ماله ، وهذه هي النتيجة التي تحققت في القصة ... لا عكسها !

اما الانتقاد على عدم ذكر اسم البطل ، فانتقاد شكلي لا أهمية له في نظري . واستشهاد الناقد بعبارة في القصة تحدث لبساً في ذهن القارىء ، امر قابل جداً للنقاش . فالواقع ان القضية لا تخرج عن كونها نوعاً من

(*) راجع باب « قرأت العدد الماضي من الآداب » في هذا العدد .

التداعي اذا تابعه القارىء بقليل من الروية زال اللبس فيه .
وللاستاذ الشاروني تحيتي واعجابي

سهيل ادريس

★

مناقشة « مأساة الانسان »

قرأت مقال الاستاذ شاكر مصطفى عن « مأساة الانسان في الحضارة الحديثة ». وقد نجح الكاتب تماما في اثارة التساؤل وفي ابراز مشكلة حيوية لعلها تزداد حيوية بالنسبة لمثقفي الشرق العربي الذين يعانون الآن مرحلة انتقال وقلقلة تهدمت فيها قيم كانت راسخة منذ أمد بعيد. فقيم المجتمع العربي لم تتغير كثيرا إلا في خلال نصف القرن الماضي فقط ، اما قبلها فكان التغير محدوداً باطار زاده جمودا سيطرة التعصب الديني بطريقة غير متمشية مع تطور وعي البشر بصفة عامة .

ومما لا شك فيه اننا في الشرق لا زلنا كما قال الكاتب على عتبة الهبكل؛ ولم يعان مأساة الانسان هذه إلا بعض افراد الطبقة المتوسطة. اما سواها من الطبقات فأفرادها إما مشغولون بكفاح قاس في سبيل لقمة العيش لا يترك أي مجال لتفكير في سواها ، او هناك غيرهم المغرقون في عبث لا يفيقون منه ، بل إنه يمكننا أن نقول أن هذه المأساة أو الازمة هي في الغرب ايضاً —لا في الشرق فقط— لازمة من لوازم الطبقة الوسطى بالذات ويندر ان تحدث في غيرها . ويبدو ذلك في صورة واضحة في رواية دوهاميل « اعتراف منتصف الليل » فبطلها وهو من البورجوازية الصغيرة يعاني هذه المأساة التي نتجت غالباعن الصدمة العنيفة التي اصابت الطبقة الوسطى في مركزها الاجتماعي والاقتصادي بعد تقدم الثورة الصناعية ، مما ادى الى انحلال هذه الطبقة بحيث أصبح مصيرها إلى زوال ، فأفرادها إما في انحدار الى الطبقة الكادحة أو صعود إلى الارستقراطية المالية . فالطبقة الوسطى الآن قد اصبحت بلا كيان واضح بل هي في ذبذبة دائمة : ذبذبة لا تسير في خط واحد بل في انحناءات مختلفة إما الى أعلى أو أسفل. وتزداد المشكلة وضوحاً في شرقنا العربي حيث نجد ان الذين يتفاعلون ويشعرون بالحاجة الى الوصول لمفاهيم جديدة هم المثقفون الواعون الذين ينتمون في الاغلب الى الطبقة الوسطى، هذه الطبقة التي يزداد دائماً بين افرادها الشعور بالفردية ، ورغم هذا الاسراف في الشعور بالفردية لا يمكننا ان نعزل هؤلاء الافراد عن المجتمع ككل فلا نستطيع ان نؤيد الاستاذ شاكر مصطفى في قوله «ان الازمات كانت تصيب القطيع البشري ككتلة لا الانسان الفرد الشاعر بذاته كانسان اليوم » فانسان اليوم هذا مهما كان مغرقا في شعوره بالفردية فهو لا يزال رغم كل شيء جزءاً من القطيع البشري او المجتمع ، وهو لابد مؤثر فيه ومتأثر به بطريقة او اخرى . والازمة التي تصيبه كفرد هي نفسها جزء من الازمة التي تصيب المجتمع او القطيع ولن يتسنى حلها الا اذا نظرنا اليها على اساس هذا الاعتبار ،وليس هناك اليوم مجال لحلول تهتم بالذات المفردة ولا تهتم بكيان المجتمع ككل .

ولا يحق لنا ان نكتفي باثارة التساؤل فقط بل يجب ان نتلمس الحلول، ولا يحق لنا ايضا ان نيأس او نتشاءم من هذا القلق ، فهو قلق حي زاخر يحتوي في اعماقه جماع القوى الانسانية التي تضطرب في عملية مخاض هائلة يتولد عنها تقدم هائل في الامكانيات البشرية . وكما قال الكاتب قد تخلصنا من أمل المسيح ، والمهدي ، وهذا وحده فيه ارتقاء كبير وايمان بحيوية الانسان ومقدرته في الكفاح على هذه الارض واستطاعة التغلب على اليأس بلا حاجة الى امل كاذب هو أشبه بالمخدر منه بالمنبه ، فتخلصنا من هذا الامل المزيف ليس معناه اننا قد يئسنا وفقدنا الثقة ، بل لقد آمنا وازددنا ثقة بقدراتنا وطاقاتنا كبشر . واذا كان ذلك قد تبعه شيء من القلق فليست المأساة في هذا القلق وانما المأساة في ان تنحرف عن الحل السليم. وبدلا من ان نكتل سوانا في كفاح مشترك هو وحده الذي يتم به انتصارنا ، بدلا من هذا ننحرف الى انطواء وتقوقع واجترار لافكار انعزالية فردية لا تقدم بل تؤخر .ومن سابق التجربة التاريخية يبدو انه كما لاشك فيه ان الركب يسير ولن يتوقف ليتنظر من ينعزل عنه ويغرق في الشعور بذاته وفرديته ، فؤلاء فقط هم الذين يحكمون على أنفسهم بالموت يأسا ان لم يتخلصوا من فرديتهم المسرفة .

واذا كان هناك الآن أصحاب أدب أسود متشائم فهناك ايضاً أصحاب أدب متفائل يحترم الانسان كفرد ولكن بحيث لا تسيء فرديته إلى المجتمع بل هي تخدمه وترقى به . فمثلا قصص الكاتب الامريكي شتاينبك—قبل ان ينقلب على عقبيه — نجد أنها تفيض بنماذج رغم أنها غاية في البؤس والفقر إلا انها جميعا ذات روح انسانية أصيلة وفهم فطري لمعنى التصادق والامل في المستقبل مادمنا لا نستسلم لليأس وما دمنا جميعاً آدميين : نشعر بنفس الآلام ونسعى لنفس الاهداف ورغم اننا أحياناً قد لا يتضح لنا تماما مبعث هذه الآلام او اتحاد هذه الاهداف إلا اننا كلما عانينا اكثر ازداد اقتناعنا بأن سبيلنا الوحيد للارتقاء بكياننا هو الكفاح بلا كلل والكفاح المشترك متعاونين مع الخير لا منعزلين . وكاتب آخر متفائل رغم ان نماذجه مغرقة في البؤس والتشرد وهو غوركي بل إنه في قصته الام يعرض في حوار رائع بالمثقفين الذين لا يحسنون إلا الكلام لا العمل فهم يكتفون بمعاناة القلق والشعور بالمشكلات ولكنهم لا يحاولون او لا يحسنون حل هذه المشكلات لما يسود بينهم من روح الانعزال والمنافسة ورغبتهم في المنافشة لمجرد اظهار ثقافتهم وهم لا يدركون تماماً ان هناك قوى أخرى فعالة في المجتمع في أحشائها بذور التقدم ويجب عليهم ان يندمجوا باخلاص في كفاحها.

وهناك برنارد شو بسخريته الرائعة يعرض للمشاكل الناتجة عن التضارب بين الاوضاع الاجتماعية الموجودة فعلا وبين القيم التقليدية التي لم تتطور معها وهو من خلال تحليله لهذه المشاكل يحاول دائما ان يبين لنا أن في الامكان معالجتها بمعالجة المجتمع وتغيير مفاهيمه ومعاييره الاخلاقية والاجتماعية بل وغالبا ما يكون في تمثيلياته شخصية تمثل القوى الناضجة الجديدة التي ستحمل عبء التقدم المنشود كما في شخصية الابنة فيفي في تمثيلية Mrs. Werren's Professin .

فأمثال هؤلاء الكتاب هم الطليعة التي استطاعت ان تتغلب على روح المأساة فيهم وان تفهم واجبها الملقى على عاتقها بالنسبة للمجتمع بلا انطواء وبلا انعزال .

وفي مقال الاستاذ شاكر مصطفى محاولة لتقييم النظريات العلمية ، والعلم فيما ادري لا يقيم ونظرياته لا تنافسه فقط في مدى صحتها او خطئها وذلك في ضوء براهين علمية. اما ان نصف بعض هذه النظريات بأنها «سحق الانسان لذاته وكرهه حتى لنفسه واحساسه الفاجع البشع بالعبودية او الحيوانية » فهذا ما لا يتفق مع طبيعة المنهج العلمي ؛ وعموما فهذه النظريات العلمية — التي وصفت بالجملة السابقة — هي اكثر احتراما للانسان من نظريات اخرى كانت تسود قبلها كنظرة التكفير والخلاص من الخطيئة الكبرى أو نظره قتل الانسان ما اكفره ، فداروين وفرويد في نظرياتهما قد زادا من فهم الانسان بالكشف عن مدى الطاقات الحيوية التي يشتملها بين جنباته ، وبذا ازداد فهمنا لهذه القوى مما يساعدنا على حفظ

الاتزان بينها وعلى حسن استغلالها في الارتقاء بأنفسنا ؛ وفرويد نفسه قد بين بوضوح ان الغريزة إذا سادت كان ذلك حالة مرضية ، فأين الحيوانية في ذلك ؟ ويلخص الاستاذ شاكر مصطفى المأساة في ثلاث فكر :

أولا : فشل الفكر الحديث والعلم في حل المشكلات إن لم يكن زادها ، اما ان المشكلات قد زادت فهذا صحيح ، إلا انه في الوقت نفسه دليل نجاح العلم لافشله ، لان العلم كلما حل لنا مشكلة ازدادت آفاق وعينا وظهرت لنا مجالات جديدة اوسع من قبل فزادت بذلك مشاكل جديدة نحاول مرة أخرى حلها بالعلم وهكذا دواليك .وهذه هي الحياة وهذا هو التقدم ؛ حركة دائمة الى امام وبلا توقف ، ولو كانت الطريقة التي يحل بها العلم مشاكلنا ينتج عنها ان نصبح فنجد انفسنا بلا مشاكل ، أقول لو كانت هذه هي النتيجة لاصبح وجودنا فراغا لامعنى له هو إلى الموت والجمود أقرب. ولو سمحت الآلهة لسيسيفوس بأن يصل الى القمة بصخرته ثم تركته بلا عمل فانه ولابد ملق صخرته بنفسه على السفح ليشغل مرة اخرى بحملها أو لعله يبحث عن قمة اخرى أعلى من سابقتها يرفع اليها صخرته .

ثانيا :فشل القيم،ولعل هذا كما سبق أن ذكرت اكثر وضوحا في الطبقة الوسطى ، خاصة وأنه رغم انها اكثر الطبقات قلقا الا انها في نفس الوقت اكثرها محاولة للاحتفاظ بالقيم التقليدية. فتطور قيم الطبقة الوسطى بطيء لا يلاحق التطور السريع في المجتمع الصناعي فينعزل افراد هذه الطبقة وينظرون من شقوق فوقمتهم إلى الآلة رمز المجتمع الصناعي على انها شبح مخيف تقضي على احلامهم وآمالهم وكيانهم المستقر ، ومن تخلفهم هذا يزداد قلقهم فيزداد مرة أخرى تمسكهم بتقاليدهم العتيقة كآخر محاولة يائسة للاحتفاظ بالاستقرار الفكري والتغلب على القلق وهكذا حلقة مفرغة : تخلف فقلق فتخلف .... فالفشل هو غالبا من قيم الطبقة الوسطى وإذا كنا قد ادركنا أن مبادىء الاخلاق « ليست مثلا عليا لا تتزحزح ولكنها وقائع نفسية او تاريخية او اجتماعية متطورة متقلبة » فمثل هذا الادراك هو خطوة إلى امام لا وراء لانه يدفعنا دائما إلى ان نطور قيمنا حتى تلائم مجتمعنا ولا نحاول تثبيت هذه القيم الا بمقدار ملاءمتها، حتى اذا اصبحت قيمنا الجديدة هذه في يوم من الايام عتيقة نبحث او يبحث من بعدنا عن غيرها ولسنا بأول أو آخر من تعرض لمثل هذه الهزة ومثل مرحلة الانتقال هذه فقد سبقتنا إلى ذلك كل الاجيال وربما امتزنا نحن عن سابقينا بأدراكنا لهذه الفاعلية والتطور في قيمنا فهذا أدعى الي استقرارنا لا إلى قلقنا .

ويشير السيد الكاتب في بحثه إلى حضارات سعيدة قديمة وإني أستميحه عذراً في أن أسأله ما هو مقياس أو معيار السعادة في هذه الحضارات وما هو مفهومها أو المقصود بها : هل هو مجرد استقرار الاوضاع بلا قلق ؟ أو في عدد السعداء المتمتعين أو البؤساء القانعين ؟ وهناك الوان من الاستقرار والوان من القناعة هي أقرب إلى سعادة الحيوان منها إلى سعادة الانسان . وكيف يكون لنا أن نقارن بين السعادة في عصرنا وبينها في عصر آخر اختلف عنا في الظروف والمفاهيم والقيم الاجتماعية والاقتصادية والفلسفية والخلقية ؟ فمن المستحيل أن تكون نظرتهم إلى السعادة هي نفس نظرتنا فلا مجال للمقارنة .

ثالثاً : « نسيت الحضارة الحديثة الانسان وأساءت فهمه » ! وهذا فعلا هو لب المشكلة ولكنه معكوس . فلقد عجز البورجوازيون عن أن يفهموا أنه لا مكان لفردية مسرفة في فرديتها والشعور بذاتها في مجتمعنا الحالي. وبدلا من أن يتطوروا ويحاولوا الاندماج في التيار العام نجدهم يتهمون هذا التيار او هذا المجتمع بأنه يعاني ازمة خطيرة لانه قد نسيهم!! فالازمة أزمتهم هم ولكنهم رغم ذلك يتمسكون بمفاهيمهم البالية لا يحيدون عنها فلا يدركوا أن الفردية قد استنفدت اغراضها كعامل لتقدم المجتمع وأصبحت الآن عائقة لهذا التقدم لا دافعة له . ولذا نبذ المجتمع كل من تمسك بها ، وهم إذ يبكون هذه الفردية لا يبكون المجتمع —الذي يتقدم دائماً رغم نواحهم— وانما هم في الواقع يعلنون افلاسهم وفشلهم ويرثون أنفسهم وضياع قوة الكفاح الجدي فيهم ثم ينشدون نشيدهم الجنائزي وهم يسعون بأنفسهم إلى الكهوف والقواقع ، إلى القبر ، وهم يتحججون بأن الحضارة الحديثة اهتمت بالكم لا الكيف وهمت الانسان على أنه جسد فحسب ، وفاتهم انه لا مكان لاهتمام بكيف قبل أن يكتمل الكم ولا مجال لتغذية العقول إذا لم تتغذ البطون أولا ، فهناك الاهم ثم المهم. ولعله مما يسهل الامور علينا أن نحدد بالضبط ما هو المقصود بالكيف أو الروح والقلب فهذه الفاظ ذات مدلولات تختلف اختلافاً واسعاً باختلاف القائل والسامع ويساعدنا كثيراً في الوصول إلى حل أن نتفق على ما نقصده بها .

— إن هاملت كانت نهايته الموت بعد أن نثر حوله العذاب والشك والجنون والقتل . أما انسان الحضارة الحديثة فهو سائر في التغلب على مشكلاته والمهم انه يجب عليه أن يستمر في البحث عن الطريق لا أن يكتفي بأن يردد أنه في أزمة او مأساة .

وأخيراً أهنىء الاستاذ مصطفى بمقاله الرائع وبما أثاره فيه من مشكلات حية ما أجدرها بالبحث خصوصاً في هذه الآونة بالذات. وكم يسعدنا لو أتحفنا الكاتب ببحث آخر يساعدنا على تلمس الطريق الصحيح .

« القاهرة » م. فهمي

★

كلمتي الاخيرة في « اباريق مهشمة »

— ١ —

في العدد الماضي من مجلة « الآداب » قرأت تعليق الكاتبة الآنسة روز غريب على نقد لي لمجموعة شعر « اباريق مهشمة » ، سبق ان نشر في عدد أسبق .

ولأن شأنها كشأن اي ناقد يتمتع بحرية القبول ، والرفض ، رأيت الى الكاتبة الفاضلة تؤيدني في بعض وجهات النظر — وان اختلفت طريقة الفهم — وتخالفني في جانب آخر ... فقد رأت ان كاتب هذه السطور « الذي حمل على اساليب القدماء في النقد ، ما زال يعتمد طريقتهم عينها في بحث السرقات الشعرية ! » .

وقبل ان ارد على رأي الآنسة ، اود ان اشير الى ان مواقفها الحيادية في استعراضها المقتضب الشاحب للمسائل التي تثير معضلات فكرية « كمأساة الانسان في الحضارة الحديثة » والمقصود بهذه الحضارة : الغربية الامبريالية ، قد اترع حاسيتي بتكهن عن مدى تفاؤلية كاتبتنا التي عدمت المنهج ، وافتقدت السند الفكري الذي تستلهمه لتبرير هذه التفاؤلية ، ولهذا السبب اعتبرت دانونزيو : شاعر ايطاليا الثائر ! .. ويبدو لي ان للكاتبة مفهوماً خاصاً بالثورة وكتابها وفنانيها ، يختلف عما درجت عليه الآراء العلمية الواقعية ازاء فهم القوى المحركة للمجتمعات عبر التاريخ . والتي احدثت الكثير من الهزات والتحولات .

إن هناك ظاهرة اخذ نطاقها يتسع ويمتد في الوطن العربي عبر الفترة الاخيرة ... هذه الظاهرة هي قابلية بعض جوانب ادبنا الحديث ، ومنه الشعر ، على اثارة معضلات فكرية تستدعي النقاش ، وتستوجب الحلول

الحاسمة النهائية ، فقد انتهى ذلك الدور الذي كان يحتدم فيه النقاش حول معنى او لفظة، وعندئذ كانت تهرع الاخشاب الآدمية الى بطون القواميس ، ومتاهات الكتب الصفر لتعثر على الدليل ! وشيئاً فشيئاً ، ولاعتماد هـذا النمط من التفكير ، انفصل الفكر عن الحياة ، وابتعد عن الخوض في معارك الصراع بين طور وطور ، بين اتجاه واتجاه ، بين قيمة جـدة محجرة ، وبين اخرى تنبعث من ذات تلك ، تناهضها وتناقضها لتؤكد وجودها في الحياة .

وفي هذه الفترة العصيبة من تاريخنا ، ينبغي على الادباء الذين يزجون بانفسهم في محتدم الصراع ويدعون ناشئة الادباء الى الاقتداء بهم ، ينبغي على قلة كاذبة ملفقة من هؤلاء ، ان تدرك ان الحركة الواقعية التي تستلهم حياة الشعب والاحداث الاساسية ، والتي اخذت معالمها ترسخ رويداً رويداً على ايدي نخبة طيبة من ادباء الشباب في العراق وسورية ولبنان ومصر ، ليست على استعداد للتفريط في مكاسبها التي انجزتها بعد نضال شاق ، لان ادباً مزيفاً انهزامياً رغب ان يرضي نزعة الوجوديين فوضع امامه ملخص قصة لكاتبة وجودية كي يستوحي « الاخفاق » و « الضياع » ، ولكي يرضي نزعات كيان فكري آخر ، وضع امامه انتاج بعـض شعرائه يستوحي و « يؤطر » ويقتبس ، حتى انك لا تجد الا في النادر الذي هو في حكم العدم ، تلك الصور التي تهزك وتثير في اعماقك تلك الحيوية ، وتلك النقمة على الاباطيل والثقة بمستقبل الانسانية المنتظر ، تلك الصور التي تنتزع من صميم بيئتنا ، ومـن بؤرة كل حدث « Action » على قدر اتصاله باحداث اخرى .

— ٢ —

ولهذا احتدم الجدل بين فئتين ، بين فئة تستوحي الكتب ، ان شعراً وان اقاصيص «حيث تنقل الاشكال من المؤلفات لامن الحيـاة» كما ذكر الناقد الاستاذ محي الدين اسماعيل في نقده لقصص « نشيد الارض » ، وبين فئة اخرى تكافح لبعث اماثر أدب عربي انساني خالص من الممكن ان ترسخ اصوله القوية في السنوات المقبلة على ايدى شبابنا المتعطش الى النور والمعرفة والتحرر ، بين فئة تتمشدف في المقاهي الخاوية ببعض القيم الـتي لاتعي معناها ، وبين اخرى تريد عن طريق ادق القيم ، وكل قيمة مفيدة، ان تحلل وان تشرح اوضاعاً وقضايا سائدة .

— ٣ —

وعلى هـذا حاولت ، في نقدي موضوع البحث . حيث بلغ الصراع الذروة عند صدور المجموعة الشعرية الموسومة بأباريق مهشمة التي لم تكن لها سوى قيمة عادية لولا ذلك الصراع ، حاولت ان اعبر عـن الاشياء التاليـة :

(١) الكشف عن قيم واقعية حديثة في الشعر لها ميزاتها وخصائصها ولها مسالكها الذي لا بد ان يؤدي عن طريق التجربـة ، والمحاولات الجديدة ، وابداع قيم اخرى ، الى خصبها ونمائها وازديادها ثراء وغـنى على مر الايام .

(٢) وان هناك « شعراً عربياً حديثاً » اتيت على ذكر بعض اسماء رواده ، وان هناك ايضاً « شعراً عربياً « حديثاً واقعيـاً » تخطى بعض الحدود ، وعلى اولئك الذين يريدون ان يزجوا اتبـاع إزرا باوند ، و ت . س . اليوت لغايات سياسية وفكرية مفضوحة ، في صميم هـذه المدرسة ، وان يستغلوا هذه القيم لطعن انصارها الحقيقيين ، على هؤلاء ان يدركوا ان القارىء العربي لن يخدعه تضليل بعد اليوم .

(٣) وان أبين ، ان الشعر لم يعد ذلك الذي كنا نعرفه في السابق : مجرد التعبير « بلغة فصحى » عن عواطف وصور فارغة من اي محتوى ساحر ، وان اصدق الشعر لا اكذبه ! بل احفله بعناصر المضامين الحديثة والصدق المحض ، واخصبه في الوقت ذاته بالمشاعر الانسانية العميقة الشاملة، الذاتية الى حد ما ، لانه ما من صراع الا وينقدح الى شطرين ينسحب احدهما الى ذات الانسان ، ويضطرب الثاني في مدى المجـال الانساني الاجتماعي حيث تحتك الانا بالآخرين . ان بعض شعرائنا يتمتعون بحس مرهف ، وشعور حاد ، ولكن الذي نستشفه ان اشعارهم فارغة مـن ذلك المحتوى ، من ذلك المضمون الذي يثيرك ، ويرغمك على الاعتراف بانك امام شاعر « يشعر ويفكر » ويخوض صراعات حادة .

(٤) وانني عندما اسرفت في ضرب الامثلة لمدى تأثر صاحب المجموعة الشعرية ، فلكي اثبت أن شخصية هذا الشاعر ممزقة ، تتعيش على ذوات الآخرين ، مبعثرة « بين وجودية مفتعلة ورومانتيكية خائبة ، وواقعية غامضة تستمد صورها من خارج المجتمع ومن ضوضاء التخيل » .. واذاً فان انتاجي ذلك السيل الذي كشف عن بعض السرقات والقى التشكك على كل المجموعة ، لم يكن هو ذاك النهج الذي سلكه النقاد القدماء . كل ما اردته ان اثبت ان ذلك الشاعر لم يكن سوى قارىء غير « مجرب » وان مجموعته الشعرية بكاملها مستوحاة مما قرأ .صور مشوهة منقولة لاغير، ومن يدري فلعل غيري سيجد في مثل قصيدة « موت الفلاح محمود » حيث تنتصب شخصية ناظم حكمت ، يونس الاعرج !! وترتعش ملامح اجوائه النفسية ، وعندما يقرأ قول الشاعر في قصيدته «الرحيل» .

والى خطى ساعي البريد
تصغي ، وتصغي « لبس في الدنيا جديد » !

فيتذكر قول بلند الحيدري :

ساعي البريد
ماذا تريد؟
انا عن الدنيا بمنأى بعيد
اخطأت لا شك فما من جديد ..

وعندما يعثر على اشياء اخرى غير التي اتيت على ذكرهـا في كلمتي موضوع النقاش ، اقول ، لعـل غيري هذا سيصدر حكماً اكثر قسوة ، واشد فورة في الحكم الادبي الحاسم . والآن ، وبالرغم من هذه العجالة ، سأترك للقارىء الحكم بيني وبين الكاتبة روز غريب التي اشعرتني مراجعتها للعدد الاسبق انها كانت كمن يريد ان يلقي عن كاهله عبئاً فادحاً ، ولهذا جاءت احكامها باترة ، وارجو ان تسمح لي اذا فات انها لا تدل على تروٍ في محل آخر كقولها إنني « مصيب في ان الاتجاه الواقعي في الفنون صفة خاصة بالطور الانساني الذي نعيش فيه ، فالشاعر وغيره من اهل الادب منجرف بتيار العصر ، تيار الالتزام » — وهنا يحس القارىء ان الـكاتبة سفحت بعض « العطر » عندما قالت : عن وعي منه — ولكنها نثرت بعض الشوك عندما قالت : أولا وعي ... هنا مصدر الاختلاف ، ان الآنسة الكاتبة ، على خلاف الرأي السائد ، ترى ان الانحراف في تيـارات الالتزام في هذا العصر يصدر ايضاً عن « لا وعي» ... اما اين هي حرية الفنان وكيف حدد الاديب نظرته الى قضايا عصره ، وما هـو فهمه وتحليلاته لتـلك القضايا ، ولماذا اختار هذه الحلول ، ولماذا مثلاً يعزو مأساة الشعب العربي في فلسطين الى الاسباب التي هي نفسها ادت الى انهيار الاخلاق الغربية التي ساندت الصهاينة الفاشست زارعي فكرة الشعب المختار

منذ مئات السنين ، وعلام انجرف في ذلك التيار ولم ينجرف في التيار المعاكس ، او يقف على « الرابية » على الاقل ، فهذا ما لم تحاول الكاتبة توضيح خطوطه لنفسها قبل ان تمسك بالقلم وتهتف : عن لا وعي !

— ٤ —

ولأني اود ان انهي كل نقاش حول هذا الموضوع ، سأجيب الآن على رسالة صديق شاعر من رابطة النهر الخالد في القاهرة ، يرى فيها ان بعض السرقات التي ألمحت اليها في نقدي السابق ، لم اذكر نصوصها الاصلية كما فعلت في شواهد اخرى ، بل اكتفيت بالقول انها منقولة من القصيدة الفلانية للشاعر الفلاني .

لصديقي صاحب الرسالة الحق في هذ السؤال ، وإليه اجابتي :

يقول الشاعر :

وكأعمى قادني النجم الى الباب المضاء

أخذ هذا القول من قصيدة الشاعر بابلونيرودا (الطريد) The Fugitive وهذا هو النص :

(Blindly I was led by roads and shadows up to the lighted door , to the small star - point that was mine , ...)

اما قوله :

الموت ، والانسان ، من اعماق فطرته يقدم فيسخاء شاراته الاخوية!

الانسان في ليل الصراع ... فأخوذ من قول ذات الشاعر في نفس القصيدة:

« Night is somber but man provides his brotherly signals...

« الطبعة الامريكية للحمة « ليستيقظ محطم الاغلال » منشورات مجلة الجماهير « Masses » .

بغداد **كاظم جواد**

★

رحمة بالقارىء !

كنت أحسبني أكتب الكلمة الاخيرة حول منظومة (آه لو تنفع آه) حين عرضت للأخ الحلي في عدد تموز صورة الجزء الذي أبهم وزنه عليه ، مقطعاً تقطيعاً عروضياً ولم يخطر في بالي أن نسياناً يعتري قلمي ، او ينتاب يد المنضد سيكون سبباً لهراش جديد ، يقتضي من السيد الحلي مقالة عريضة — في عدد آب — تفيض بضروب أخرى من الغمز واللمز ...!

لقد سقط مني أو من المنضد بعض حروف من ذلك المقطع مع تفعيلتها المقابلة ، فاذا هو يهجم عليها بكل قوته ، كأنه المحقق العدلي يطبق على طرف الجريمة ! .. ويطيب له التندر فيهتف بالسارق — أنا ! — على مسمع جمهرة القراء : (أين ولت عبارة (تحت الدجى) يا أستاذ ؟ ماذا حل بها ؟ ولم مسخت ؟..) انظروا أيها الناس .. إنه (يجتث عامداً كلمتين من نتاجه على مرأى من أنظار القراء،وعين الحقيقة التي لن تنام أبدا...)

ثم يحدق باحثاً عن مطعن آخر في (فريسته) فاذا هو يجده في ذكري لزحاف الخبن — حفظ الله شعره من زحاف الخبن وإخوته ..— فيصرخ مقهقهاً : (بشرى سارة إلى الذين يتخذون من الزحاف عكازاً!..) ولا يفوته أن يلون صيحته المدوية بتهاويل بارعة من ألفاظ (الجراد ، والغزو المنظم ، والمسخ ، والبهلوانية ، والانحلالية ...) وما إلى ذلك من تعابير فنية رائعة تذكرنا بقول أمير الشعراء رحمه الله :

ومن النقد والجدال كلام يشبه البغي ... والفضولا

وأي بغي وأي فضول أوضح من هذا الاستغلال الحماسي لكلمة لم أرد بها دفاعاً عن الزحاف ، وإنما ذكرتها في معرض التقرير لواقع في التفاعيل أبى أن يتفطن له دون تصوير !

على أني لا أجد مندوحة من استكمال النقاش بعرض مجموع المقطع ، مرفقاً بتفاعيله ، ليرى الأخ الكريم أن ما حسبه مطعناً لم يمسك منه بغير تلابيبه هو . فليقرأ معي مشكوراً غير مأمور :

[مللذجتا — فاعلاتن — حجاها — فعلاتن — فحاها — فعلاتن — عصفلغد — فعلاتن — ربهاتح — فعلاتن — تددجيفه — فاعلاتن — ير كامن — فعلاتن — من حطامن — فاعلاتن — ودمائي — فعلاتن]

ليت شعري هل بقي شيء مما يصلح للهتاف والتصفيق بعد الآن ؟! هل أدرك الاخ الحلي ، وهو النقادة العبقري : أن صراخه وهتافه وتندره لم تكن ذات موضوع !!

اما والله إني لأكتب هذا في خجل من القراء ، فقد كان الاحرى ببياض (الآداب) أن يسود بما ينفع الناس أما ان نشغله بمناقشة التفاعيل للتثبت من صحتها،فذلك أمر يستدعي الرحمة بالآداب وبقراء الآداب(*) .

ومهما يكن من شيء فللقراء علي أن أقدر وقتهم فلا أشارك في هذا اللغو بعد هذه الكلمة . وللأخ الحلي من بعد أخلص تحياتي .

محمد مجذوب

★

نماذج الشعر الحر ..

« ليالي القاهرة » قصيدة الشاعر محمد اسماعيل هاني ، هي خير نموذج حي للشعر الحر ، انتقال بارع في القوافي ، من قافيه لأخرى وتبديل في التفاعيل ، مع محافظة على الموسيقى الكلاسيكية للقافية ، التي يتحتم وجودها في الشعر . وفي الشعر العربي منذ وجد ، فلا احراج للشاعر — في هذه القصيدة — في الاستمرار على قافية واحدة تلزم الشاعر فيما لا لزوم به ، فتضطره الى تزييف خياله ومجاملة القوافي على حساب الشاعرية ؛ ولا تقيد في الاوزان بجعل الصدور والاعجاز مرتبطة — على طول القصيدة — بنغمة واحدة تصبح معها القصيدة كضربات رتيبة على طبل ! ..

ان الشعر الحر يجب ان يحافظ على كونه شعوراً منظوماً ، لا منثوراً ، وكثير من الشعر الحر الذي ينشره شعراؤنا المجددون على ما فيه من دفقات حية ، وانطلاق مجنح في عالم الواقع ، يفتقر الى النغمة الشعرية وهي موسيقية القافية المنفرد بها الشعر العربي والمتناسقة على موسيقانا ...

ان القافية الهة الشعر . مهما تطورت بحوره وكثرت اصنافه ، وان قصيدة الاستاذ محمد اسماعيل ، وعدد ابياتها ٣٥ بيتاً انتقل فيها الى خمس عشرة قافية ، وعدة اوزان ، وحافظ — مع هذا الطواف بين ازهار القوافي وحسان الاوزان — على موسيقى الشعر ونغمه المحبب الجميل .. ان هذا النمط نموذج حي — كما قلت — للشعر الحر ، والا فأن التحلل من القافية نهائياً يفقد القصيدة مجدها الغنى ، ويذهب بما يؤمل من خلود للشاعر وقصيدته رغم ما فيها من معان حية خالدة ...

سدة الهندية — العراق **عبد الكريم الملا محمد**

* بهذه الكلمة نختم النقاش في هذا الموضوع الذي طال الأخذ به والرد...
« الآداب »